- وماذا تعطيني أنت مقابل هذا؟...

- كل ما تطلب..

- الشباب!..

- هو لك!..»[18].

وقد احترم الحكيم «عهد الشيطان» فأخذ يقرأ كل شيء يصادفه، ويفق وقته كله في القراءة والكتابة. فكان يلتهم ما أنتجته القريحة الإنسانية من تاريخ وفلسفة وفنون، بل إنه كان يطالع حتى الكتب العلمية والطبية والهندسية والرياضية وغيرها[19]. وكان يظل يكتب أحياناً لمدة عشر ساعات في اليوم متتالية دون أن يفطن إلى أوقات الطعام[20]. وكان يرفض التمتع بالشمس والجمال مع أصدقائه في «نيس» أو «جراس» أثناء العطلة الصيفية ليلقي بنفسه في «أتون تلك الحمى المستعرة»[21].. حمى القراءة والكتابة. وحتى الحب فإنه لم يكن بالقوة التي تحرجه من توازنه. إنما الذي أخرجه عن طوره هو حب الأدب والفن، وقد حلت المطامع الأدبية عنده محل المطامع العاطفية[22].

ويرى الحكيم أن الفنان من واجبه أن يعلم أن كل حاسة من حواسه تطلب غذاء فنياً أو جمالاً سامياً يرضيها، وأن هناك عاقرة استطاعوا أن يعبروا عن هذا الجمال وأن يوفروا غذاء لهذه الحواس، وتمكنوا من «صبه في قوالب فنية رائعة: هي الكتب، والصور، والتماثيل، والمعابد، والسمفونيات، والأوبرات، والأناشيد، والتمثيليات، والأشعار، والأزهار.. إلخ»[23]؛ فالمعرفة الكاملة يجب أن تدخل من جميع الأبواب والنوافذ وليس من باب أو نافذة واحدة.

ومن هنا فإننا لا نشك في صدق الحكيم عندما يتغنى بحبه للرسم والمتاحف[24]، والموسيقى و«الأوبرات»، إلى درجة المغالاة أحياناً؛ كأن يحدثنا عن زياراته المتعددة لمتحف «اللوفر» بباريس، وعن الأوقات الطويلة التي كان يقضيها هناك أمام روائع لوحات مشاهير الرسامين، يتأملها بتأن وتوءدة، فهو لا يمر أمام اللوحة مرور الكرام أو مرور السائحين، وإنما يبحث «عن سر اختيار